

استراتيجية الإشهاد في الرحلة الفرنسية إلى درعة

عبد النبي ذاكر

كلية الآداب والعلوم الانسانية
أكادير

تمهيد :

لقد شغل الفضاء الدرعي حيزا هاما في العديد من الرحلات الأوروبية عموما (1)، انطلاقا من مباحث متعددة : سوسولوجية وإثنولوجية وجغرافية وجيولوجية وتاريخية، إلخ. وسنحاول في هذه الدراسة رصد أسلوية رحلة فرنسية إلى درعة، وخاصة على مستوى توظيف واشتغال الأسلوب المباشر (style directe) أو ما يسمى بالخطاب المباشر، ومستوى الأسلوب غير المباشر (style indirecte) أو ما يطلق عليه اسم الخطاب غير المباشر. وما نتوخاه من هذه المقاربة الأسلوية هو الوقوف على استراتيجية الاشهاد، أي الوقوف عندما يقدم في الرحلة الفرنسية - بتقنية أسلوية لا تخفى خلفياتها الايديولوجية - على أنه مكون من مكونات الثقافة المغربية الدرعية، أو مظهر من مظاهرها. وسيتم التركيز في هذه الدراسة على رحلة فرنسية قامت بها الفرنسية أوديت دي بويكودو (Odette du puigaudeau) خلال سنوات 1934، 1936 - 1938 في المغرب وموريتانيا (2). ولن يتأتى لنا تفسير وفهم الخلفية القابعة وراء توظيف إستراتيجية الاشهاد على مستوى الملفوظ، إلا بالمرور عبر مستوى الملفوظية. وسنتناول النقطة الثانية ضمن إشكالية العقلية الأركيولوجية، في حين سنعالج النقطة الأولى ضمن إشكالية أركيولوجيا العقلية.

1. أنظر الملحق الجيولوجيا للرحلات الأوروبية في رسالتنا : الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب، د.د.ع. الرباط 1989 - 1990.

2. Du Puigaudeau, odette ; La Route de l'Ouest : Maroc-Mauritanie, Edition J.Susse, 15 Nov. 1945.

1. العقلية الأركيولوجية :

تلزم الإشارة أولا إلى أن دي بويكودو قامت برحلتها : (طريق الغرب)، على إثر تكليف بمهمة من قبل وزارتي التربية الوطنية والمستعمرات، ومن قبل متحف التاريخ الطبيعي، قصد إنجاز أبحاث ودراسات في الاثنوغرافيا وفي ما قبل التاريخ (préhistoire) وهي لذلك تحدد لكتابتها، منذ البداية، إستراتيجية معينة. إنها على وعي بخصوصية ملفوظيتها : «لقد ولى في إفريقيا زمن البطولات : زمن برازا (Brazza) وستانلي (stanly) وزمن التجار وزمن لابرين (Laperrine) وفوكو (Foucauld) ورواد الاصقاع المجهولة، وبدأ زمن الدراسة والتنظيم والاثنوغرافيا والسياحة»⁽³⁾ فهي تعلن موت الرحلة، وتزف إلى قارئها ميلاد السياحة والدراسة المنظمة العلمية الصارمة، أي ميلاد الاثنوغرافيا. ومع ذلك فإن «المغامرة ما زالت حاضرة، لكنها ليست بالضرورة مغامرة مفاجئة»⁽⁴⁾ . وبالإضافة إلى اختلاف ملفوظية المؤلفة عن نتاجات زمن البطولات، هناك اختلاف ثان عن نتاجات كايي (René Caillé) وباني (Panet) ودول (Douls) وماج (Mage) وبول بلانشي (Paul Blanchet) الرواد السلميين للغزو الفرنسي الذي لم ينته إلا في سنة 1934، على إثر آخر العمليات العسكرية في أقصى الجنوب المغربي⁽⁵⁾ إذن فسنة 1934، التي تجعلها المؤلفة نهاية مرحلة لها خصوصيتها من حيث حضور صورة المغربي في المتخيل الفرنسي، تدشن بداية عهد جديد لهذه الصورة مع الرحلة الاثنوغرافية عموما، ومع رحلتها بالذات، التي هي «مغامرة لم يكن هدفها هو الكسب، بل الإطلاع»⁽⁶⁾، على حد تعبيرها. لذلك «سيقول عشاق الانفعالات القوية : أين هي المغامرات في كل هذا ؟ ماذا ؟ ألا حديث هنا عن غرق السفن وأكلة لحم البشر والترقيات التي يفلت البطل من شركها مطعوناً بسهم مسموم ؟ لا شيء عن قنص الأسود ؟ لا شيء عن الموت عطشا ؟ إن مصدر ذلك هو كوني عديمة الخيال»⁽⁷⁾.

3 . O.P. cit, p. 205

4 . IBID, P. 205

5 . IBID, P. 12

6 . IBID, P. 10

7 . IBID, P. 204

كل المؤشرات المتعلقة باللافظ والملفوظية تفيد أن الصورة التي ستقدم عن الفضاء المغربي عموما والفضاء الدرعي على وجه الخصوص ستصب في بوثقة الواقعي وستتجنب المتخيل، ما دامت المؤلفة ستقدم على دراسة إثنوغرافية علمية أولا، ومادامت ثانيا تشهد على نفسها بالافتقار إلى الخيال. خيالها هي، لكن خيال الآخر مدعو للاستعاضة عن الأول عبر استراتيجية الإشهاد. وهو ما سنتناوله في النقطة الموالية :

2. أركيولوجيا العقلية :

بهذه الاستراتيجية سنتقل المؤلفة من مستوى الشهادة المؤسسة على المشاهدة إلى مستوى الإشهاد المؤسس على إغراء الآخر بتقديم صورة عن نفسه يفترض أنها موضوعية وواقعية. بعبارة أخرى إنها نقلة من إطار الكلام المباشر (Parole immédiate) إلى إطار الكلام غير المباشر (Parole médiate)، أي الكلام عبر وسيط مؤهل ضمنيا لفرز تمثيلية واقعية (Représentation réelle)، إنه وسيط الذات الغيرية، التي هي الذات الدرعية هنا. لكن قبل رصد تجليات إستراتيجية الإشهاد في الرحلة المدروسة، يلزمنا تحديد ما يقصد بالإشهاد وبالتالي ما يفهم من الخطاب المباشر أو الأسلوب المباشر وغير المباشر.

1.2. أسلوبية الخطاب المباشر :

يحدد اللسانيون الأسلوب المباشر بكونه «صيغة ملفوظية تجعل المشاركين يتواصلون بصفة مباشرة»⁽⁸⁾. ويتعبير أوضح : «إن الخطاب (أو الأسلوب) المباشر يعيد نصيا إنتاج ما قيل من كلام : إنه الخطاب المستشهد به من قبل السارد، كما لو أنه خرج لتوه من فم صاحب الكلام. بحيث أن هوية هذا الأخير يشار إليها في عبارة سابقة أو لاحقة أو في جملة إعتراضية»⁽⁹⁾.

ويرى أولمان (Ullmann Stephen) أن استعمال الأسلوب المباشر أو الخطاب المباشر، اختيار أسلوبى واع، يوظفه الباحث أسلوبيا لخلق قيم تعبيرية

8. Dubois (Jean) et Autres, Dictionnaire de linguistique, Lib. Larousse, 1973, P. 457.

9. Grevisse (Maurice), Le Bon Usage, Ducolot, 11^e éd. 1980. P. 1409.

معينة، ف «الأسلوب المباشر هو أسلوب الحوار الذي يعبر مباشرة عن الشخصية ويصدر عنها» (10).

وحتى تتمكن من رصد خلفية هذا الاختيار الأسلوبي في الرحلة التي تعيننا، ونتمكن من كشف النقاب عن وظيفته، نسوق بعض النماذج :

2.2. وفاة الرسول في بلاد درعة :

«وسط الشلوح (Chlueh) في ورزازات، هنا أحب الرسول أن يليي داعي ربه.

— أو لم يتوف في مكة ؟

— أبدا، أبدا ! بل في ورزازات ! لقد جاء على متن البراق الذي يطوي الأرض في ليلة واحدة. لقد جاب بلاد درعة كلها، ثم مات، وإذا أن ضريحه لا يوجد في ورزازات، فذلك لأنه أمر أن يحمل على البراق عقب وفاته، وأن يتم إخلاء سبيل هذا الأخير حتى يتوقف وحده عن المسير، وهناك يدفن. لكن البراق انطلق باتجاه المشرق، ولم يتوقف إلا في مكة» (11).

2.3. الرسول أحل «للشلوح» لحم ابن آوى :

«— في يوم من الأيام، كان الرسول يتجول بجبل سررة، فمر بيمين ابن آوى الذي كان يلوك عشباً، وقال لمن كان يصطحبه من الشلوح : إن لحم هذا الحيوان محلل على المسلمين ! وبعيدا بعض الشيء رأى من الجانب الآخر ابن آوى ينهش جثة كبش، فقال : إن هذا اللحم محرم على المسلمين ! ومن يومها صار بإمكاننا نحن الشلوح أكل لحم ابن آوى، لكن فقط شقه الأيمن الذي حلل لنا. لكن المسلمين الآخرين لا يعرفون هذه الواقعة، لذا يرفضون أكل لحم ابن آوى. وهذا دليل على أن الرسول قدم إلى بلاد درعة» (12).

10. د. صلاح فضل، علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، 1985، ص. 108.

11. Du Puigadeau, op. cit. p. 36.

12. IBID, P. 38.

4.2. الرسول والاركيولوجيا :

«لم يكن لهم أن يفهموا لم غادرنا مدن الشمال الجميلة لكي نأتي لالتقاط الأحجار وتصوير المقابر في هذا الوادي القاحل.

— ماذا تريدان من الخرائب القديمة ؟ قال ميلود. إن أصحابها ماتوا منذ أمد بعيد والرسول لم يتحدث عنهم.
ذاك كان تصوره عن الاركيولوجيا» (13).

5.2. الحيوانات في خدمة الرسول :

«في بلاد درعة، قال بدوره أصغر الفرسان، إذا سألت الخروف المار : ماذا تصنع ؟ أجابك : إنني أصنع برنوس محمد، وإذا سألت النحلة، أجابتك : أعد شراب الرسول ! (14).

6.2. استراتيجية الإشهاد : بنيته ووظيفته :

1.6.2. بنىة الإشهاد :

لقد عمدت المؤلفة إلى استثمار بنيات متعددة لاستراتيجية الإشهاد. من ذلك استعمال تقنية التوليد. فبالنسبة للنموذج الأول نجد أن الكاتبة تطرح قضية موت الرسول في ورزازات : «وسط الشلوح في ورزازات هنا أحب الرسول أن يلبي داعي ربه». وبعد ذلك تسعى إلى توليد هذه النتيجة من الذاكرة الدرعية عبر مثير له أهلية وكفاية الحفر في هذه الذاكرة، ذاك هو سؤال : «أو لم يتوفي في مكة ؟» وهو سؤال يتلوه جواب مفعم بالتوكيد والوثوق والحجاج : «أبدا، أبدا ! بل في ورزازات ! لقد جاء على مشن البراق ... وإذا أن ضريحه لا يوجد في ورزازات، فذلك لأنه ...» ويتمطر الحجاج مرة أخرى في النص الثاني الذي تقيم فيه الذاكرة الدرعية الدليل على أن الرسول جاب بلاد درعة. وهو دليل يتمثل في تحليل أكل لحم ابن أوى على الشلوح من دون سائر المسلمين الذين يجهلون ذلك. ومع ذلك فإن هذه الصرامة الحجاجية، يلطف منها بنائيا ورود ملفوظها في شكل حكايات : «في يوم من الأيام، كان الرسول يتجول بجبل سروة ...»

IBID, P. 36 . 13

IBID, P. 39 . 14

وفي النص الثالث عودة إلى التقنية الأولى حيث تطرح المؤلفة نتيجة ستصل إليها في نهاية الملفوظ بعد أن تخللها بشهادة حية منبثقة عن الذات الدرعية نفسها. وهي شهادة في شكل سؤال يجاور جوابه :

«لم يكن لهم أن يفهموا لم غادرنا مدن الشمال الجميلة، لكي نأتي لالتقاط الأحجار وتصوير المقابر في هذا الوادي القاحل.

— ماذا تريدان من الخرائب القديمة ؟ قال ميلود. إن أصحابها ماتوا منذ أمد بعيد والرسول لم يتحدث عنهم.

ذاك كان تصوره عن الأركيولوجيا».

أما النص الأخير، فقد اتخذ بنية أسطورية. فالخروف الدرعي لا يوجد إلا في خدمة الرسول والنحلة كذلك. فأصل إنتاج شيء ما لا يجد له تفسيراً آخر في الذاكرة الدرعية، كما تشي بذلك بنية النص الوثائقية : «إذا سألت الخروف ... أجابك ... وإذا سألت النحلة ... أجابتك ...»

وهنا نتساءل ما الوظيفة الكامنة خلف هذا التعدد والتنوع الأسلوبى المبنين لاستراتيجية الإلهاد ؟

2.6.2. وظيفة الإلهاد :

يبدو أن رحلة دي بويكودو محكمة بملفوظية الخطاب الاثنوغرافى، الذي هو أصلاً خطاب متعال يعنى بدراسة الشعوب البدائية، راصدا ومصنفا واقعا متخلفا بعباداته وتقاليده وأعرافه وشعائره الروحية (15) بل إن الاثنوغرافيا تزعم أنها تؤرخ لمن لا تاريخ (16) له. فهي وليدة الاستعمار، تغذت بلبانه وترعرعت في أحضانه، وهي شأنها شأن الاثنوبولوجيا الثقافية والاجتماعية عاشت من أجل الاستعمار وبه، والهدف منها لم يكن علميا بقدر ما سهل الاحتلال وخدمه خدمة جلى (17). وهذا ينطبق — إلى حد ما — على الرحلة الاثنوغرافية التي نحن بصدددها. فهي لا تخرج عن الاستراتيجية العامة التي اختطها الخطاب الكولونيالى، سيما إذا علمنا أن الذات المكتتبه هنا تم اكتتابها من قبل وزارتي

15. د. رشدي فكّار، عن الحوار الحضاري في بعد واحد، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط.1 - 1988. ص 22.

16. المرجع السابق، ص 24.

17. السابق، ص 23.

التربية الوطنية والمستعمرات ومتحف التاريخ الطبيعي. ولنقل الصورة المتحفية الدرعية تم اللجوء إلى تقنية تمكن من الحفر في الذاكرة الأهلية، عبر صمت الشهادة والمشاهدة وتمرير ما تسكت عنه عبر قناة الأشهاد حيث تتوارى الصورة التي تقدمها المؤلفة عن الآخر (Hétéro-Image)، لتحل محلها الصورة التي يقدمها الآخر عن نفسه (Auto-Image). وهي الامكانية التي توفرها تقنية الخطاب المباشر أو الأسلوب المباشر. فالدرعي يصبح هو المصور المباشر لذاته. وإن الشهادة التي يقدمها عن نفسه تأتي كاستراتيجية للايهام بالواقعي، وإعطاء قيمة علمية للمسروود، وإضفاء لبوس المصادقية عليه. الشيء الذي يجعل «الجهل» و «الخرافة» و «البدعة» من مكونات العقلية الدرعية «المتخلفة». ونعتقد أن هذه هي الخلفية الكامنة وراء لعبة الأشهاد، وتحقيق المثل السائر : (شهد شاهد من بني جلدته). وهكذا تلتقي من حيث محتواها الصورة التي تقدمها الذات المكتتة عن الدرعيين مع الصورة التي يقدمونها عن أنفسهم، تعزيزاً لكفة الايهام بالواقعي، وتمريراً لخطاب منسجم ظاهرياً بين المرئي والمروى. فتغدو الشهادة معادلة للأشهاد، وكلام الآخر مطابقاً لكلام الذات. وبهذا يحمل الباب متلقيه على استحضار وتوكيد الصورة التي سبق عرضها عبر الشهادة، والمقصود من وراء كل ذلك هو تركية راهنية ما قبل التاريخ، أي حضور الماضي في الآن والها هنا الدرعيين، في ثباتهما وسكونيتهما وتحجرهما ومتحفيتهما، تلبية لنداء صورة قبلية في الذاكرة الفرنسية، أبت إلا أن تكون أمينة لافق انتظارها : «لم يخب الظن، فقد وجدنا نفسينا (18) أمام البهاء والشعر الذي كنا نبتغيه. لقد وجدنا المغاربة شبيهين بأسطورتهم. تحت كتلة شعرهم القط (Créque) أو (المقصب Bouclée) بالزبدة، أو تحت ظل عمائمهم الزرق، كانت أعينهم ليلاً خداعة ووحشية. إن منظرهم لا يوحي للوهلة الأولى بالمودة والثقة (19)». ومع ذلك فإن الميثاق الذي عقدته المؤلفة مع متلقيها ييوح بغير ذلك : «توخيت فقط أن أحجب إليك هذه الصحراء وهؤلاء المغاربة، بشجاعتهم وسذاجتهم، بتأديهم اللب وحس الشرف لديهم» (20). وغير خاف أن مصدر هذه المفارقة هو أن الذات المكتتة لم تتخلص من الصورة الثقافية المتوارثة، مثلما لم تتخلص من مداينة ومغازلة أفق انتظار الذات المكتتة.

18. المؤلفة وصديقتها.

19. DU Puigadeau, op. cit. p. 15.

20. IBID, P. 205.

